الإشكال الواقعى فى العمل التفسيرى

دراسة ميدانية فى تفسير القرطبى

بقلم الدكتور

زياد خليل محمد الدغامين (*)

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فإن العمل التفسيرى فى المنهج النبوى كان قائماً على أحكام الصلة بين النص القرآنى والحياة الواقعية ، لأن المفسر الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم أراد بهذا أن يخط منهج تفسير القرآن والتعامل معه قراءة وفهماً ، ونعنى بالقراءة، القراءة الحضارية التى تمكن الأمة من أن تتفيأ ظلال موقعها العالمى ، وتتبوأ مكانتها اللائقة بها بين الأمم. ونعنى بالفهم : الفهم الحضارى الذى يطرح مفاهيم القرآن ومبادئه لتشغل المساحة الفكرية والعلمية العالمية ، لأن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين ، كما يشهد قوله تعالى لذلك : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً** ﴾ (١) .

وعلى ضوء هذا يكون الدافع الأصيل لتفسير القرآن هو بيان هداية الله تعالى فى كل مجالات الحياة الإنسانية، وفى كل ميادينها العلمية والمعرفية والعملية. وحين ندرك حجم الضلال الذى تغرق فيه البشرية فى أفكارها وقيمها وأخلاقها وسلوكها ونظام حياتها على مر العصور، حين ذاك ندرك قيمة الهداية الربانية التى بعث بها الأنبياء عامة ، والهداية القرآنية - التى بعث بها خاتم النبيين خاصة - ودورها وأثرها وضرورتها، ويكون دور المفسر ثمة الكشف عن هذه الهداية وبيانها بأوضح أسلوب وأيسر طريق ، وبذلك يأخذ التفسير الطابع العلمى الواقعى ، فيبقى وثيق الصلة بحياة الناس ، ومن ثم يكون القرآن حاضرا باستمرار : يرشد ويوجه ، يعدل ويصحح ، ويهدى للتى هى أقوم . إن منهج التعامل مع القرآن يأخذ بعين الرعاية والاهتمام وظيفة الإنسان كخليفة ، ودوره فى القيام

* - قسم معارف الوحى والتراث - الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا .

بهذه المهمة ، بل دوره فى قيادة الحياة البشرية وتوجيهها لتحقيق العبودية لله فى مجالات الحياة كلها ... هذا المنهج بدأت معالمه تندرس فى العمل التفسيرى بعد عصر الخلافة الراشدة أو بعد عصر الصحابة بوجه عام ، وانفصال القيادة الفكرية « قيادة العلماء » عن القيادة السياسية « قيادة الخلفاء » . وبدأ كل يخط محساره بعيدا عن اتجاه الآخر فى أغلب الأحيان ، فقل تأثير العلماء فى توجيه الحياة الواقعية على ضوء القرآن الكريم وهديه . هذا الانفصال رافقه انفصال آخر هو أشد منه خطورة، وأعظم منه أثراً ، وهو انفصال التفسير عن الواقع ، لينشغل بعد ذلك بتراكمات معرفية مصدرها النقل والرواية ، وضروب من علوم اللغة والبلاغة والفلسفة والكلام والفقه ... فأضيفت هذه العلوم إلى العمل التفسيرى فشكلت - فى كثير من الأحيان - معوقا فى فهم هداية القرآن الكريم ومقاصده وحجاباً .

ونحن فى دراستنا لتفسير علم من أعلام التفسير وأئمته ، وهو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى (سنة ٦٧١هـ) صاحب الموسوعة الضخمة فى التفسير المسماه الجامع لأحكام القرآن [٢] تهدف إلى بيان وإبراز تلك الفجوة والهوة فى العمل التفسيرى بوجه عام : ليقودنا ذلك إلى إصلاح منهج التعامل مع القرآن وتفسيره بوجه شمولى .

وسأعرض لهذا الأمر من خلال تتبع كل ما كتبه القرطبى فى تفسيره ، وأبين كيف كان القرطبى يتحدث عن واقع عصره ، وما هى الأسباب التى جعلت علمائنا يعتزلون الواقع نوعا ما ، هذه هى قضية البحث الأساسية . وستتجلى من خلال :

- بيان المقصود بالتفسير الواقعى .
- عرض موجز للأحداث التى عاصرها القرطبى .
- ذكر ما تضمنه تفسير القرطبى من إشارة إلى قضايا الواقع .
- تقويم موقف القرطبى من قضايا الواقع .

وأرجو أن يعلم أن تسمية البحث بهذا الاسم جاء بعد استعراض لهذه القضية فى تفسير القرطبى كله .

المقصود بالتفسير الواقعى :

لا أقصد بالتفسير الواقعى أو بربط التفسير بالواقع أن يذكر المفسر الأحداث التى زامنها ، والوقائع التى عاشتها الأمة فى عصره ليتحول التفسير بذلك إلى كتاب أحداث تاريخية . ولا أقصد أن يبدى المفسر عبارات النقد والسخط التى تعبر عن عدم رضاه عن الأوضاع الجاهلية فى عصره . ولا أقصد شكواه وأناته من تلك الأوضاع ، ولكنى أقصد به : البعد التحليلى للظواهر المرضية التى تعانى منها الأمة فى حياتها ، والكشف عن علاج القرآن لها من خلال التفسير ، وبعبارة أخرى : كيف أثبت أن هداية القرآن تستوعب حاجات الزمان والمكان المتجددة فى مختلف العصور ، وكيف أثبت أن هداية القرآن تضع حداً للانهيار الحضارى الذى عانت منه الأمة وتعانى فى شتى مجالات حياتها .

هذا المنهج ليس بدعاً من القول ، وليس إسقاطاً على النهج التفسيرى الذى سلكه مفسرون رحمهم الله ، بل هو منهج ينطلق من هدى القرآن ابتداء ، وهو الذى هيمن على تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورحم الله الإمام الشافعى ما أحكمه وما أعمق فهمه فى قوله : كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن [٣] قال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما** ﴾ [٤] .

فهو يكشف عن حقيقة المنهج العملى الذى سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم فى تفسير القرآن .

وكان هذا المنهج هو المهيمن على مسلك الصحابة- رضوان الله عليهم- فى فهمهم للقرآن وتطبيقهم له ، أليس فعل أبى بكر الصديق بإعلان الحرب على المرتدين منهجاً واقعياً سليماً فى فهم ظاهرة الردة وتحليل أبعادها السياسية والاجتماعية والدينية ، وتنزيل للنص القرآنى على ذلك الواقع .

وفى منهج عمر رضى الله عنه أمثلة لا تحصى فى فهم مقاصد القرآن الكريم وتنزيل أحكامه على الواقع العملى بعد إدراكه ذلك الواقع وتحليله على ضوء تلك المقاصد ، فعدم إقامته لحد السرقة ، ومنعه تقسيم سواد العراق ... كافية فى الدلالة على ذلك المنهج الذى سلكه الصحابة فى فهم القرآن وتفسيره إن على المستوى الفردى ، وإن على مستوى

الأمة. ثم ألم يكن أصحاب رسول الله البررة مصاحف تمشى على الأرض ؟ أليس فى فعلهم وسلوكهم ترجمة عملية للنص القرآنى ، ليوضحوا بذلك منهج التعامل مع القرآن فى مجال القراءة والفهم والتفسير .

ولمزيد من البيان نورد بعض النصوص التى تدل على ضرورة ربط التفسير بالواقع الحياتى للفرد والأمة بأنه فى غاية الوضوح نقلا ، ومنطقا وعقلا . فالتفسير لم يكن يدفع إليه إلا الحاجة التى هى فى حد ذاتها ترجمة عملية للنص القرآنى . وهل فرق القرآن بين الفهم والعمل أو طالب بأحدهما دون الآخر ؟ إن المنهج النبوى فى تعليم القرآن والحث على تعلمه يرشدك إلى منهج التعامل الصحيح مع القرآن ، وتشير نصوص كثيرة إلى ذلك :

منها : ما روى عن أبى عبد الرحمن السلمى ، قال : « كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التى بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها » وفى رواية أخرى عنه قوله : إنما أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزها إلى العشر الأخرى حتى يعلموا ما فيهن من العمل ، قال : فتعلمنا العلم والعمل جميعا (٥) .

منها : قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - فى الحديث الذى كان يسأل فيه حذيفة عن الشر: « يا حذيفة تعلم كتاب الله واتبع ما فيه » (٦) .

ومنها : ما ذكره الإمام مالك بن أنس أنه بلغه أن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها (٧) ليتحصل على أى : يقيم حدودها أمراً ونهياً ، وإدراكاً وفقهاً ، فكانت منطلقاً له فى حركته الفكرية والعملية .

وقد كان بعضهم يخرج إلى سوق الكوفة لينظر إلى الإبل (٨) لأن الله تعالى يقول : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ (٩) ، ليتحصل على المعرفة من خلال المشاهدة ، وليقيم أمر الله تعالى بالنظر إليها ، فكل نظر - كهذا - يجلب لصاحبه فائدة ، تغذى إيمانه ، وتقوى يقينه ، وتزوده بمعرفة منبثقة من دراسة النص القرآنى دراسة عملية واعية .

ثم بدأ الطابع النظرى يغزو فهم القرآن لأسباب عدة ، من أهمها : انتشار الأفكار التى لا تنسجم مع روح العقيدة الإسلامية ، فتحول التفسير إلى معارك فكرية مذهبية بين

أهل السنة والمعتزلة والخوارج والشيعة وغيرها، إضافة إلى خلافات النحويين والفقهاء ... وتحول الأمر بعد ذلك ليكون الدافع لتفسير القرآن - عند كثير من المفسرين وبنسب متفاوتة - هو المتعة الفكرية والشغف الثقافى بكثير من المعارف والفنون ، ومن هنا بدأ التجاوز الصريح للواقع الحياتى للأمة ، وقامت الفجوة بين تفسير القرآن الذى هو المحرك الحقيقى لحياتها وبين واقع هذه الأمة .

منهج الإمام القرطبى فى التفسير :

فإذا ما انتقلنا إلى العلامة الفقيه المالكى أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى الأندلسى وجدنا من خلال تفسيره الموسوعة « الجامع لأحكام القرآن ، والمبين لما تضمن من السنة وآى الفرقان » إن ثقافته وعلمه بالأحكام قد تميز بها تفسيره وتلون ، فجمع لنا تراثا فقهياً عظيماً هو حصيلة فقهه من تقدمه من سلف هذه الأمة وناقش الكثير من الأحكام بنزاهة وموضوعية ، واستقلالية فى الرأى .

ولقد صدق د/ الذهبى فى وصفه حيث قال : إن القرطبى رحمه الله فى تفسيره هذا حر فى بحثه ، نزيه فى نقده ، عف فى مناقشته وجدله ، ملم بالتفسير من جميع نواحيه ، بارع فى كل فن استطرد إليه وتكلم فيه [١٠] .

إلا أنه - مع هذا - قل اهتمامه بفقه الواقع ، الفقه الذى يعالج به قضايا الواقع وهمومه من خلال تفسيره لكتاب الله . وإذا كان المفسر الذى يكشف عن هداية القرآن لم يعن بواقع عصره ، فمن الذى سيعنى به ، وكيف يصل الناس إلى هذه الهداية ؟ إن أكبر عجز نواجهه حديثاً هو : دعوتنا إلى تحكيم الإسلام فى نظم الحياة مع عدم قدرتنا على تقديم الهداية القرآنية فى هذه النظم ، وعدم قدرتنا على فهم الواقع وتحليل أبعاده وتوصيف العلاج القرآنى لكل الظواهر المرضية فى المجتمع البشرى ، وعلى سبيل المثال ، أننا ننادى بتحريم الربا دون أن نقدم بديلاً عملياً واقعياً شمولياً لأزمة الاقتصاد على ضوء الهداية القرآنية ! بل الأمر أشد من ذلك حين نكون عاجزين عن فهم الواقع الاقتصادى الربوى ومن ثم عاجزين عن اختراقه وإثبات فشله . إن الذى يراد من خلال التفسير الواقعى هو فهم الواقع من جميع أبعاده مع القدرة على التعامل معه ، لا وصف الواقع والشكوى منه بالاسترجاع والحوقلة .

واقع القرطبى :

لنرجع إلى القرطبى ونذكر - بإيجاز شديد - أهم الأحداث التى وقعت فى عصره فى البلاد الإسلامية، ثم نلقى الضوء على تفسيره لنبحث عن حجم محاكاته لذلك الواقع .

لقد رحل القرطبى إلى المشرق وكانت الأندلس تواجه أحداثا جساما، وحملات صليبية مجرمة ، ووضعاً سياسياً مؤلماً ، وتفرقاً فى صفوف الأمة جعلها فريسة سهلة للطامعين ... وكثرت الخيانات من المتسلطين على مقاليد الحكم والسياسة من أبناء العشائر والقبائل ، كل هذه الأحداث زامنها الإمام القرطبى ، ففى سنة ٦٠٩ هـ ، استولى الإفرنج على أكثر الأندلس بعد وقعة العقاب وهى الوقعة الطامة على الأندلس بل المغرب جميعا ، وما ذاك إلا لسوء تدبير أحد القادة وهو محمد الناصر ؛ فإنه استخف برجال الأندلس العارفين بالقتال ، فشنق بعضهم ، ففسدت النيات ، ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة تحمد [١١] .

وفى سنة ٦٢٧ هـ سقطت الجزائر الشرقية فى الأندلس، وأكبرها جزيرة ميورقة ... وفى يرم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ٦٣٦ هـ سقطت المدينة العملاقة قرطبة ... وسقطت بلنسية إحدى المجاهدة ، وكبرى المدن قواعد شرقى الأندلس ، وتلا سقوطها سقوط عدد من المدن القريبة، مدينة تتلوها مدينة ، وأجلى المسلمون عن هذه المدن ، قال المقرى : ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثأر بالنظم وبالنثار ، فلم ينفعهم ذلك حتى اتسع الخرق ، وأعضل الداء أهل الغرب والشرق ... وفى سنة ٦٤٦ هـ سقطت المدينة العظمى إشبيلية [١٢] وتجرع أهلها كثيرا من الأذى ، ونالهم الأسى ، أشد منه وأدمى رحيلهم عنها وقلوبهم حزنى ، يجللهم النكد، ويفريهم فراق البلد ، غادرها من أهلها ما يقدر بأربعمائة ألف قصدوا مدن الأندلس أو العدوة الأخرى ... لقد جرعوا أهلها كأس الحمام ، من كثرة المجاعة وعدم الطعام، فكل منهم فى بحر المنايا غاص وعام ، مما حل بهم من الأوجال والآلام ، فسلموا لهم فى المدينة وخرج منها الخاص من أهلها والعام [١٣] .

وجاء فى وصف حال الأندلس على لسان بعض العلماء: لقد طرقت الدهياء ذلك القطر الذى ليس له فى الحسن مثال ، ونسل إليه الخطب من كل حدب وانثال ، وكل ذلك من اختلاف رؤسائه وكبرائه ، ومقدميه وقضاته وأمرائه ووزرائه ، فكل يروم الرياسة لنفسه

ويجر نارها لقرصه ، والنصارى يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد ، ويضربون عمراً ببزيد ، حتى تمكنوا من أخذ البلاد ، والاستيلاء على الطارف والتلاد [١٤] .

وزامن القرطبى - رحمه الله - الأحداث المأساوية فى بلاد المشرق التى لم تكن تختلف عن الأحداث فى بلاد المغرب والأندلس ، فالمرض واحد وأعراضه واحدة ، وفى ظل غياب مبدأ الشورى الإسلامى ، وذهاب هيبة العلماء ، وتسلط القائمين على الحكم ضاعت البلاد ، وطمع فيها الأعداء حين رأوا الخلاف بين هؤلاء الحكام إلى الحد الذى يقاتل بعضهم بعضا ، ويتحالفوا ضد بعضهم البعض طمعا فى الملك ، بل تحالفوا مع الفرنجة وغيرهم من أجل هذا الهدف ، كما فعل الملك عمر بن العادل الذى حث هولاكو التترى إلى القدوم إلى الشام ثانية بعد هزيمته [١٥] .

وظهر فى هذا العصر جنكيز خان ، وأعمل سيفه فى لحوم المسلمين فى حوادث كثيرة ، أشار ابن كثير إلى إحداها فقال مشيراً إلى كثرة ما أحدثه من قتل : لعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادث ... إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج [١٦] .

واستمر الحال فى المشرق الإسلامى ما بين غارات التتار المتكررة والمؤذية على المشرق الإسلامى ، وما بين غارات الصليبيين واحتلالهم لبلاد كثيرة فى مصر والشام وخاصة بيت المقدس حيث عاثوا فيها الفساد ... وفى سنة ٦٥٦ هـ سقطت عاصمة الخلافة الإسلامية ببغداد على يد التتار، وقتلوا فيها - على قول - ألفى ألف نفس [١٧] .

أقول : لقد تتبعت تفسير القرطبى كله؛ لأنه ليس هناك مظان يمكن الرجوع إليها للتعرف على تحليل قضايا الواقع ، ولأنها لم تكن من منهج القرطبى رحمه الله .

ويمكن تصنيف هذه القضايا فى خمسة موضوعات ، هى : موضوع الجهاد ، وموضوع الصوفية والتصوف ، وموضوع فساد الحكام ، وموضوع فساد العلماء والعامة وأحوال العصر ، والموضوع الأخير متفرقات ذكرها القرطبى فيما يتصل بذلك الواقع ، وإليك بيانها :

أولاً : الجهاد فى سبيل الله تعالى :

وهو من الموضوعات الأساسية المهمة التى كانت تشغل عصر القرطبى فى العالم الإسلامى كله ، وليس فى الأندلس فحسب ، والقرطبى ينبغى أن يدخل هذا المعترك كمفكر

إسلامى ، ومفسر عظيم ؛ ليبلغ هداية الله للناس ، فالمفسر هو أولى من يقوم به ، ولنستمع إلى حديث القرطبى فى هذا الموضوع : عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ [١٨] نقل تفسير أبى عبيدة للآية ، وهو: « عسى أن تكرهوا ما فى الجهاد من المشقة وهو خير لكم فى أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات شهيداً، وعسى أن تحبو الدعة وترك القتال وهو شر لكم فى أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم. قلت : القول للقرطبى :

وهذا صحيح لا غبار عليه ؛ كما اتفق فى بلاد الأندلس وتركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار؛ فاستولى العدو على البلاد ، وأى بلاد ؟ وأسر وقتل وسبى واسترق، فإن لله وإنا إليه راجعون ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته [١٩] ، واكتفى بهذا التعليق فى مثل هذه الآية التى بين ما تضمنته من أحكام فى ثلاث مسائل فى صفحتين، بينما فسر آية ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ [٢٠] التى بعدها فى أربع عشرة مسألة فى اثنتى عشرة صفحة .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ [٢١] ذكر أن فى قولهم هذا تحريض على القتال واستشعار للصبر وإقتداء بمن صدق ربه ، قلت والقول للقرطبى - هكذا يجب علينا أن نفعل . ولكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك ، حتى ينكسر العدد الكبير منا أمام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة ، وذلك بما كسبت أيدينا . ثم يبين القرطبى أسباب النصر فيقول : فى البخارى ، و قال أبو الدرداء، إنما تقاتلون بأعمالكم ، وفيه مسند أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم » فالأعمال فاسدة ، والضعفاء مهملون ، والصبر قليل ، والاعتماد ضعيف ، والتقوى زائلة ، قال الله تعالى : ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله ﴾ ، وقال : ﴿ وعلى الله فتوكلوا ﴾ ، وقال : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ ، وقال : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ ، وقال : ﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ ، فهذه أسباب النصر وشروطه وهى معدومة عندنا غير موجودة فينا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا ، بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره ، ولا من الدين إلا رسمه ، لظهور الفساد

ولكثرة الطغيان ، وقلة الرشاد حتى استولى العدو شرقا وغربا وبرا وبحرا، وعمت الفتن ، وعظمت المحن ، ولا عاصم إلا من رحم [٢٢] .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون** ﴾ [٢٣] روى حديثا سمعه من شيخه بقرطبة، فحين ذكر قرطبة قال : « أعادها الله » [٢٤] فإذا كان هذا هو تعليق العالم المفسر ، فما عسى أن يكون تعليق عامة الناس ؟

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ [٢٥] .

ذكر فى المسألة الخامسة : أن العدو إذا صبح قوما فى منزلهم ولم يعلموا به فقتل منهم فهل يكون حكمه حكم قتيل المعترك ، أو سائر الموتى ؟ وهذه المسألة نزلت عندنا بقرطبة أعادها الله ، أغار العدو - قصمه الله - صبيحة الثالث من رمضان المعظم سنة سبع وعشرين وست مائة والناس فى أجرانهم على غفلة ، فقتل وأسر ، وكان من جملة من قتل والدى رحمه الله : فسألت شيخنا المقرئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبى حجة فقال : غسله وصل عليه ، فإن أباك لم يقتل فى المعترك بين الصفين . ثم سألت شيخنا ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع بن أبى ، فقال : إن حكمه حكم القتلى فى المعترك. ثم سألت قاضى الجماعة أبا الحسن على بن قطرال وحوله جماعة من الفقهاء ، فقالوا : غسله وكفنه وصل عليه ؛ ففعلت . ثم بعد ذلك وقفت على المسألة فى « التبصرة » لأبى الحسن اللخمى وغيرها ، ولو كان ذلك قبل ذلك ما غسلته ، وكنت دفنته بدمه فى ثيابه [٢٦] وقد أشغلت هذه القضية الجزئية الإمام القرطبى - رحمه الله - حتى سأل عنها ثلاثة من الشيوخ الأعلام . وعند تفسيره لقوله تعالى ﴿ **وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير** ﴾ [٢٧] .

ذكر عن ابن العربى : .... إلا أن يكونوا أسراء مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة ، والنصرة لهم واجبة ، حتى لا تبقى منا عين تطرف حتى تخرج استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا فى استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم . كذلك قال مالك وجميع العلماء ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما حل بالخلق فى تركهم

إخوانهم فى أسر العدو وبأيديهم خزائن الأموال ، وفضول الأحوال والقدرة والعدد ، والقوة والجلد [٢٨] وهذا الاسترجاع والوصف لأحوال العصر من كلام ابن العربى المتوفى سنة ٥٤٣هـ [٢٩] وكأن مثل هذا الوصف يحتاج إلى نقل لاسيما وأن الأوضاع فى زمن القرطبى كانت أسوأ بكثير مما كانت عليه فى زمن ابن العربى رحمهما الله تعالى .

وعند تفسير قوله تعالى ﴿ **انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ [٣٠] تابع ابن العربى أيضا فى قوله : ولقد نزل بنا العدو - قصمه الله - سنة سبع وعشرين وخمسمائة فجاس ديارنا ، وأسر خيرتنا ، وتوسط بلادنا فى عدد هال الناس عدده ، وكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حددوه. فقلت للوالى والمولى عليه : هذا عدو الله قد حصل فى الشرك والشبكة ، فلتكن عندكم بركة ، ولتظهر منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد فى جميع الأقطار فيحاط به ، فإنه هالك لا محالة أن يسركم الله له ، فغلبت الذنوب ورجفت القلوب بالمعاصى ، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوى إلى وجاره ، وأن رأى المكيدة بجاره ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وهو حسبنا ونعم الوكيل [٣١] .

وقال المقرى معلقاً: ولا خفاء أن هذا قبل أخذ العدو شرق الأندلس وسرقسطة وميورقة وغيرها ، والبدايات عنوان على النهايات [٣٢] .

لقد استشرى المرض فى القلوب وتغلغل فكيف يعالج ؟ وكيف تقوى هذه النفوس على مقاتلة العدو والوقوف فى وجهه ؟ وإذا كانت أوضاع الأمة بهذه الحال فإن الكشف عن سبب دائها وسر دوائها يكون هو الواقعية فى التفسير ، وليس الاقتصار على وصف الواقع .

وفى عرض تفسير قوله تعالى ﴿ **قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** ﴾ [٣٣] تحدث القرطبى عن سباق الخيل ، وقال ملمحاً : والخيل التى يجب أن تضمر ويسابق عليها ، وتقام هذه السنة فيها الخيل المعدة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين فى الفسق [٣٤] والأمر أعظم من مجرد التلميح ، وأدهى من أن يعالج بالإشارة ! !

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ [٣٥] ذكر فى المعنى الثالث لهذه الجملة أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا منه ، إلا أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر ، ويتقاعدوا عن التوبة فيكون تسليط العدو من قبلهم ، كما قال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ [٣٦] .

قال ابن العربى : هذا نفيس جداً . قلت - والقول للقرطبى - : ويدل عليه قوله عليه السلام فى حديث ثوبان « حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، ويسبى بعضهم بعضا » ، وذلك أن « حتى » غاية ، فيقتضى ظاهر الكلام أنه لا يسلط عليهم عدوهم فيستبيحهم إلا إذا كان منهم إهلاك بعضهم لبعض ، وسبى بعضهم لبعض ، وقد وجد ذلك فى هذه الزمان بالفتن الواقعة بين المسلمين ، فغلظت شوكة الكافرين ، واستولوا على بلاد المسلمين وانتهكوهم [٣٧] ، فإن كان الإسلام لم يبق إلا أقله فما هو واجب العلماء كافة ، والمفسرين على وجه الخصوص ! !

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴾[٣٨] نقل كلاما عن ابن العربى تضمن ذكر بيت المقدس ، فأضاف القرطبى إليه عبارة « طهره الله » [٣٩] فيكون بذلك متحدثا عن واقع عصره على رأى بعضهم .

ولمزيد من التوضيح أقول : كان بيت المقدس فى أيدى المسلمين منذ الفتح العمرى له حتى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وفى تلك السنة وقع فى أسر الصليبيين حتى حرره صلاح الدين الأيوبى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، فبقى فى أيدى المسلمين حتى سلموه إلى الإفرنج سنة ست وعشرين وستمائة ، ثم حرره مرة أخرى الملك الناصر داود سنة سبع وثلاثين وستمائة ، ثم عاد وسلم إلى الإفرنج سنة إحدى وأربعين وستمائة ، ثم فتح على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة اثنتين وأربعين وستمائة [٤٠] .

وعند تفسير قوله تعالى ﴿ وإذا قرأت القران جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ﴾ [٤١] ذكر القرطبى رحمه الله روايات تذكر كيف عميت امرأة أبى لهب عن رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم قال : ولقد أتفق لى ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا ، وذلك أننى هربت أمام العدو انحزت إلى ناحية أخرى ، فلم ألبث أن خرج فى طلبى فارسان

وأنا فى فضاء من الأرض قاعد ليس يسترنى عنهما شئ ، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القران ، فعبرا على ثم رجعا من حيث جاءا ، وأحدهما يقول للآخر : هذا ديبله ، يعنون شيطاناً ، وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يرونى ، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك [٤٢] وهذه كرامة له رحمه الله فقد كان تقيا صالحا ، نحسبه كذلك ولا نزكى على الله أحدا ، ومشاركته فى الجهاد قدوة عملية للناس ، وحديثنا لا يمس شخصية القرطبى رحمه الله ، بل يتعلق بربط التفسير بقضايا الواقع وتحدياته وإشكالاته ربطاً منهجيا ، لتظهر هداية القران من خلال معالجة التفسير لتلك القضايا والتحديات التى يواجهها عصر المفسر ، أى مفسر .

ثانيا : الصوفية والتصوف :

لقد غلب على القرطبى رحمه الله روح التصوف ، فعاش زاهدا ورعاً ، ومع هذا كان شديد النقد والرفض لبدع الصوفية وتعاليمها . فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ [٤٣] تحدث عن النهى عن السجود للبشر ، وقال : وهذا السجود المنهى عنه قد اتخذه جهال المتصوفة عادة فى سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم ، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه ، ضل سعيهم وخاب عملهم [٤٤] وتحدث عن ذلك أيضا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً** ﴾ [٤٥] فقال : وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة ... قلت - والقول للقرطبى - هذا الانحناء والتكفى الذى نسخ عنا صار عادة بالديار المصرية وعند العجم ، وكذلك قيام بعضهم البعض ، حتى إن أحدهم إذا لم يقم له وجد فى نفسه كأنه لا يؤبه به ، وأنه لا قدر له ، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، ووراثة مستقرة لاسيما عند التقاء الأمراء والرؤساء ، نكبوا عن السنن وأعرضوا عن السنن [٤٦] وهو نقد لاذع من القرطبى لأولئك القوم ، لكن نقد الصوفية قد سبق إليه الإمام ابن الجوزى فى كتابه « تلبيس إبليس » على صورة أقذع مما ذكر القرطبى رحمه الله ، وهو مع هذا يبقى مجرد نقد .

تحدث إن الخشوع عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلاّ على الخاشعين** ﴾ [٤٧] وذكر أن السلف كانوا يجتهدون فى ستر ما يظهر من

ذلك ، وأما المذموم فتكلفه والتباكى ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليروا بعين البر والإجلال ، وذلك من خدع الشيطان ، وتسويل من نفس الإنسان [٤٨] ولعله من فعل المتصوفة كذلك .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً ﴾ [٤٩] ، ذكر عن أبن عطية أن الصوفية تعلقت بهذه الآية فى القيام والقول ، وقال وهذا تعلق غير صحيح ، هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته ، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته ، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم ، وهذه سنة الله فى الرسل والأنبياء والفضلاء والأولياء ، أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام ، والرقص بالأكمام ، وخاصة فى هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان ، هيهات بينهما والله ما بين الأرض والسماء [٥٠] .

وفيما يتصل بالموضوع نفسه يتحدث القرطبى عن الغناء المحرم ، كالأشعار التى توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال ، أو يثير كامنا من حب اللهو ... لاسيما إذا اقترن بذلك شابات وطارات مثل ما يفعل اليوم فى هذه الأزمان [٥١] وذكر أيضا ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغانى بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعازف والأوتار فحرام [٥٢] .

ويظل القرطبى يهاجم بدع الصوفية وعاداتها فى كل تفسيره ، ويصفهم بأنهم جهلة أغمار، وأنهم جهال متزاهدة ، وأن مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة [٥٣] لكن ينبغى أن يفهم من هذا أمران : أولهما : أن القرطبى ليس إلا ضد بدع التصوف وجهالاته وضلالاته ، لا ضد روح التصوف وحقيقته ، وقد كان يستشهد بعبارات الصوفية وأقوالهم وأشعارهم إعجابا منه بها وتقديرا منه لها [٥٤] والثانى : ليس القرطبى أول من ينتقد التصوف والمتصوفة ، ولم تكن هذه القضايا جديدة على عصره ، وهو فى النهاية نقد وتسفيه لهم .

ثالثا : فساد الحكام :

تطرق القرطبى رحمه الله فى ثنايا تفسيره إلى الحديث عن بعض أوصاف حكام عصره بإيجاز شديد، وقد كان حديثه ينم عن سخط وغضب عليهم لما أحدثوا ويحدثون من

مفاسد وشرور، فعند تفسير قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** ﴾ (٥٥) ، تحدث عن أن الله نهى عن اتخاذ الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلاء وولجاء ... وأن عمر نهى عن استكتاب أهل الكتاب ولأنهم يستحلون الرشا، وأنه لا يجوز استكتاب أهل الذمة ، ثم قال رحمه الله : « وقد انقلبت الأحوال فى هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء ، وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الو لاة والأمراء » (٥٦) ، وهو تعليق ساخط على أولئك الأمراء، وهو نتيجة حتمية لانفصال القيادة الفكرية عن القيادة السياسية ، واعتزال القيادة الفكرية دنيا الحكام . ولذلك فإن القرطبى لا يجيز الدعاء لهؤلاء الحكام على المنابر أيام الجمع ، ويعتبر ذكرهم من قبيل ذكر الشيطان ، فعند تفسيره لقوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ (٥٧) بين القرطبى بعد تفسير الآية أن ما كان من ذكر رسول الله صلى عليه وسلم والثناء عليه ، وعلى خلفائه الراشدين ، وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو فى حكم ذكر الله . فأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم ، وهم أحقاء بعكس ذلك فهو من ذكر الشيطان (٥٨) .

بل يصرح بما هو أشد من ذلك ، فيقول : إن ولاة زماننا لا تجوز طاعتهم ولا معاونتهم ولا تعظيمهم ، ويجب الغزو معهم إذا غزوا، والحكم من قبلهم ، وتولية الإمامة والحسبة ، وإقامة ذلك على وجه الشريعة . وإن صلوا بنا وكانوا فسقة من جهة المعاصى جازت الصلاة معهم ، وإن كانوا مبتدعة لم تجز الصلاة معهم إلا أن يخافوا ، فيصلى معهم تقية ، وتعاد الصلاة (٥٩) ، ثم يذهب القرطبى رحمه الله ليقول : إن أكثر العلماء على أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه ... أما الخروج فهو مذهب طائفة من المعتزلة وهو مذهب الخوارج فاعلمه (٦٠) .

لا يبدو لى أن هناك معالجة منهجية لهذه القضية ، لأن القضية ينبغى أن تعالج فى إطار واقع القرطبى ، لتكون الفتوى بذلك فتوى واقعية ، منبثقة من فقه واقعى ، لكن هذه

القضية فى فقهنا الإسلامى عولجت من خلفية تاريخية لازالت تلقى بظلالها على العصور اللاحقة، وعلى هذا لا ينبغى أن يتحول فقهنا إلى فقه تاريخى . ولا بد من السعى نحو فقه أصيل معاصر واقعى . تحدث القرطبى عن بعض أحوال عصره حديث الساخط المتألم لفساد أحوال الناس وشيوع الظلم ، وكثرة الفتن ... فقد تحدث عن الرشوة عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون** ﴾ [٦١] وذكر أن مما قيل فى معناها : لا تصانعوا بأموالكم الحكام وترشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها ، قال ابن عطية : وهذا القول يترجح لأن الحكام مظنة الرشاء إلا من عصم وهو الأقل ... قلت - والقول للقرطبى- : فالحكام اليوم عين الرشا لا مظنته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله [٦٢] .

وأشار ملمحا إلى أثر الظلم وضرره على العمران والحياة كلها ، فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ **أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب** ﴾ [٦٣] .

ذكر قولا يبين كيفية نقص الأرض من أطرافها ، فقال : قيل : نقصها بجور ولاتها ، وقال معلقا : وهذا صحيح معنى ، فإن الجور والظلم يخرب البلاد ، بقتل أهلها وإجلائهم عنها ، وترفع البركة من الأرض ، والله أعلم [٦٤] .

وأشار إلى أن شأن كثير من الظلمة ودأبهم أنهم مع ظلمهم يستطيلون بألسنتهم ، وينالون من عرض مظلومهم ما حرم عليهم [٦٥] .

ويبين مدى المشقة التى لحقت بالناس من جراء ما أحدثه الظلمة فى عصره ، فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإذا بطشتم بطشتم جبارين** ﴾ [٦٦] ، ذكر أن الآية نزلت خبراً عمن تقدم من الأمم ، وعظا من الله عز وجل لنا فى مجانبة ذلك الفعل الذى ذمهم به ، وأنكره عليهم . ثم قال معلقا : وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت عادة لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية - المماليك - فيبطشون بالناس بالسوط والعصا فى غير حق ، وذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر عن هذا الوضع ، فقال : صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ... الحديث ، رواه مسلم [٦٧] .

رابعاً : فساد العلماء والعامة وأحوال العصر :

يشير القرطبى رحمة الله - إلى فساد العلماء فى عصره إشارة الناقد الساخط ويصف الحال الذى وصل إلية العلماء فى عصرة من بؤس ، فعند تفسيره قوله تعالى : ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا لا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ [٦٨] وذكر أن من سئل عن علم أن يقول أن لم يكن يعلم « لا أعلم ولا أدرى » ، وذكر أن هذا هو شأن الصحابة والتابعيين وفقهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف فى العلم، ونقل عن مالك قوله : ما فى زماننا شئ أقل من الإنصاف . وأضاف القرطبى معلقاً : هذا فى زمان مالك ، فكيف بزماننا اليوم الذى عم فينا الفساد ، وكثر فيه الطغاه ، وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية ، بل للظهور فى الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذى يقسى القلب ويورث الضغن ، وذلك مما يحمل على عدم التقوى ، وترك الخوف من الله تعالى [٦٩] .

ولا شك أن فساد العلماء وفساد الأمراء سيؤدى حتماً إلى فساد أوضاع الأمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وسيؤدى إلى انتشار الفتن فيها فتتراجع حضارتها وتذهب ريحها ، وقد أشار القرطبى - رحمة الله - إلى ذلك ، فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ [٧٠] ، قال وإنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة ميثاقا ألا يقتل بعضهم بعضاً، ولا ينفيه ولا يسترقه ، إلى غير ذلك . وهذا كله محرم علينا ، وقد وقع ذلك كله بالفتن فينا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون [٧١] .

وفى الآية نفسها يذكر القرطبى أن العلماء قالوا : كان الله قد أخذ عليهم أربعة عهود : ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أسراهم فأعرضوا عن كل ما أمروا به من الفداء ... ثم يقول : ولعمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن ، فتظاهر بعضنا على بعض ! ليت بالمسلمين ، بل بالكافرين ! حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجرى عليهم حكم المشركين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم [٧٢]. وفى عرض بيانه حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الأمة يعرض القرطبى للسبب الذى أوصل الأمة إلى العقاب الوارد فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما مثلى ومثل أمتى

كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه » رواه مسلم . فيقول : هذا مثل لاجتهاد نبينا عليه الصلاة والسلام فى نجاتنا ، وحرصه على تخلصنا من الهلكات التى بين أيدينا ، فهو أولى بنا من أنفسنا ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهوتنا علينا ، وظفر عدونا بنا. صرنا أحقر من الفراش وأذل من الفراش ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم [٧٣] .

وإذا كان الجهل قد أوصل الأمة إلى هذه النتيجة فكيف نعالجهم ؟ وكيف نسترجع مكانتنا وهيبتنا بين الأمم ؟ الجواب قطعا بالرجوع إلى الكتاب والسنة ، لكن كيف ؟ هذا هو السؤال الذى ينبغى أن تتوجه إليه عناية العلماء ! ويبين القرطبى بعض البدع والمفاسد المنتشرة بين الناس فى عصره ، فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ...** ﴾ [٧٤] ، ذكر ما يتعلق بالجنائز فبعد غسلها وتكفينها وحملها فالحكم الإسراع فى المشى لقوله عليه السلام أسرعوا بالجنازة ... الحديث ، لا كما يفعله اليوم الجهال . فى المشى رويدا ، والوقوف بها المرة بعد المرة ، وقراءة القرآن بالألحان إلى ما لا يحل ولا يجوز حسب ما يفعله أهل الديار المصرية بموتاهم [٧٥] .

ويبين - نقلا عن العلماء - أن الأحوال فى هذه الأزمان قد انقلبت فأصبح الناس يأتون المنجمين والكهان لاسيما بالديار المصرية ، فقد شاع فى رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين ، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاؤا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال واستخرجوا منهم الأموال ، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل ، ومن أديانهم على الفساد والضلال [٧٦] .

وفى سياق التحذير من البدع بوجه عام ذكر أن القران حذر من التبديل والتغيير والزيادة فى الشرع ... وأورد تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ... ثم قال : وقد وقع ما حذره وشاع ، وكثر وذاع ، فإنا لله وإنا إليه راجعون [٧٧] . وهو تعليق ليس فى هذا القول يقتضى أن يشهد عصره نهاية الإسلام ، أو انقطاع أمة محمد بعده ، وكأنه سوف لا يلحق الأمة افتراق بعد ذلك [٧٨] .

ويشير إلى بعض المفاسد الأخرى عند الناس فى سياق الحديث عن غض البصر فى قوله تعالى ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ...** ﴾ [٧٩] ، ذكر أن بهذه الآية حرم

العلماء نصا دخول الحمام بغير مئزر ، ثم قال : أما دخول الحمام فى هذه الأزمان فحرام على أهل الفضل والدين ، لغلبة الجهل على الناس واستسهالهم إذا توسطوا الحمام رموا مآزرهم، حتى يرى الرجل البهى ذو الشيبة قائما منتصبا وسط الحمام وخارجه باديا عن عورته ، ضاماً بين فخذيه ، ولا أحد يغير عليه ، هذا أمر بين الرجال فكيف بالنساء ! لاسيما فى الديار المصرية إذ حماماتهم خالية عن المظاهر التى هى عن أى من الناس سواتر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم [٨٠] .

وذكر القرطبى مفاسد النساء وما أحدثنه من فتن ، ففى بيانه معنى قوله تعالى : ﴿ غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم ﴾ [٨١] استشهد بقوله عليه الصلاة والسلام : « ... ونساء كاسيات عاريات رؤسهن كأسنمة البخت ... الحديث ، وبين أن المعنى الأصح فى تأويل الحديث هو أنهن كاسيات من الثياب عاريات من لباس التقوى ، ثم قال : وهو اللائق بهن فى هذه الأزمان ، وخاصة الشباب فإنهن يتزين ويخرجن متبرجات ، فهن كاسيات من الثياب عاريات من التقوى حقيقة ، ظاهراً وباطنا، حيث تبدى زينتها، ولا تبالى بمن ينظر إليهن بل ذلك مقصودهن ، وذلك مشاهد فى الوجود منهن ، فلو كان عندهن شئ من التقوى لما فعلن ذلك ، ولم يعلم أحد ما هنالك . ومما يقوى هذا التأويل ما ذكر من وصفهن فى بقية الحديث فى قوله : رؤوسهن كأسنمة البخت ... شبه رؤوسهن . بها لما رفعن من ضفائر شعورهن على أوساط رؤوسهن. وهذا مشاهد معلوم ، والناظر إليهن ملوم [٨٢] ولم يبين القرطبى حد إبداء النساء فى زمنه لزينتهن ، لنعرف نوع التبرج الذى كن يمارسنه !

ويتصل بهذه القضية حديثه عن التبرج فى الأسواق ، فقد نقل عن ابن العربى قوله : ... أما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون : « لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح ، وعندى أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها لأن ذلك إسقاط للمروءة وهدم للحشمة » . فيقول القرطبى معلقا : ما ذكرته مشيخة أهل العلم فنعما هو ، فإن ذلك خال عن النظر إلى النسوان ومخاطبتهن إذ ليس بذلك من حاجتهن . وأما غيرها من الأسواق فمشحونة منهن ، وقلة الحياء قد غلبت عليهن حتى ترى المرأة فى القيساريات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها، وهذا من المنكر الفاشى فى زماننا هذا، نعوذ بالله من سخطه [٨٣] .

وفى تفسير قوله تعالى ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ [٨٤] ذكر أن الشواب من النساء حرام عليهن الخروج لزيارة القبور ، وأما القواعد فمباح لهن ذلك . وجائز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال ، ولا يختلف فى هذا إن شاء الله ، وعلى هذا المعنى يكون قوله : القبور . وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء ، فلا يحل ولا يجوز - وقال ملمحا - فبينما الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على امرأة فيفتتن وبالعكس ، فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزوراً غير مأجور ، والله أعلم [٨٥] .

وقال ملمحا إلى بعض المفاسد الاجتماعية التى تنم عن رقة فى الدين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ [٨٦] ، قال : ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه : تعالوا نتنزه على الخيل أو فى بعض الزوارق ، فيركبون حاملين مع أنفسهم أوانى الخمر والمعازف ، فلا يزالون يستقون حتى تمل طلاهم وهم على ظهر الدواب ، أو فى بطون السفن وهى تجرى بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا يمتثلون إلا أوامره [٨٧] . وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ ... إلاَّ من اغترف غرفة بيده ... ﴾ [٨٨] أشار ملمحاً إلى أن من أراد الحلال الصرف فى هذه الأزمان دون شبهة ولا امتراء ولا ارتياب فليشرب بكفيه الماء من العيون والأنهار المسخرة بالجريان آناء الليل وآناء النهار، مبتغيا بذلك من الله كسب الحسنات ، ووضع الأوزار ، واللحوق بالأئمة الأبرار [٨٩] . ويوحى هذا الكلام بأن تحرى الحق فى زمنه يكاد يكون معدما أو نادرا، وهو تصوير يائس لأحوال الناس .

خامساً : متفرقات :

هناك بعض القضايا المتناثرة التى ذكرها القرطبى مما يتصل بواقع عصره على وجه العموم ، وهى :

١ - بيّن أن فى قوله تعالى ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ دليلاً على أن الجيب إنما يكون فى الصدر موضع الثوب وكذلك كانت الجيوب فى ثياب السلف رضوان الله عليهم ؛ على ما يصنعه النساء عندنا بالأندلس وأهل الديار المصرية من الرجال والصبيان وغيرهم .

٢ - ذكر بعض القضايا الفكرية الواقعية على ندرتها، فقد ذكر أن الآية فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ...** ﴾ [٩٠] ليست منسوخة ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت ، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان بل حكمها لليوم ثابت فى كثير من مساكن المسلمين فى البوادى والصحارى ونحوها [٩١] .

٣ - وقد ناقش واحد من مشايخ زمانه فى قضية الأخذ بالأسباب [٩٢] وهى من القضايا الكبرى فى الفكر الإسلامى قد سبق إلى تفصيلها الإمام الغزالى وغيره .

٤ - وتحدث عن أرض مصر وكيف كانت تروى بالنيل فى عصره ، وذكر أنه لم يكن هناك اهتمام بعمارة الجسور النافعة لعملية الرى [٩٣] .

٥ - وذكر عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ [٩٤] إن المنافق والكافر لا يدخلون الجنة وهم لم يصطفوا، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : مثل المنافق الذى يقرأ القران مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، فأخبر أن المنافق يقرأه وهو فى الدرك الأسفل من النار ، وكثير من الكفار واليهود والنصارى يقرءونه فى زماننا هذا . وقال مالك : قد يقرأ القران من لا خير فيه [٩٥] .

موقف القرطبى من واقع عصره :

وبعد ، فهل يمكن أن نلمح موقفا للقرطبى مما جرى فى العالم الإسلامى فى عصره؟ لم أستطع أن أجد موقفاً يبرز دوره كعالم مفسر أو كقيادة فكرية فطبيعة دور المفسر تقتضى منه بيان الهدى الآلهى للناس ، والكشف عن هذه الهداية للناس ، لأنه الوحيد القادر على أن يمثل دور المفسر الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم فى قيادة الحياة وتوجيهها على حسب ما تتيحه الأ حوال ، بل الذى أكاد ألمحه هو العكس ، أعنى لقد تبنى القرطبى رحمه الله موقفا سلبيا تجاه الأوضاع السائدة فى عصره ، وذلك لسببين رئيسين ، هما :

السبب الأول : طبيعة الحياة التى ارتضاها القرطبى - رحمه الله - لنفسه ، فقد غلب عليه الزهد فى الحياة الدنيا مما كان له أثر فى انعزاله عن معالجة وتحليل مشكلات

عصره ، ووصف العلاج القرآنى لها ، يشهد لهذا قول العلماء فيه : كان من عباد الله الصالحين ، والعلماء العارفين الورعين ، الزاهدين ، فى الدنيا ، المشتغلين بما يعنيهم من أمور الآخرة فيما بين توجه وعبادة وتصنيف [٩٦] .

ويشهد له تلميحه إلى أن العزلة عن الناس فى الصوامع والبيوت مندوبة ، وذلك عند فساد الزمان وتغير الإخوان [٩٧] مستشهداً بقوله تعالى : ﴿ **ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاَّ ابتغاء رضوان الله . . .** ﴾ [٩٨] .

وحاكى كلام ابن العربى فى قوله : إن التبتل المنهى عنه ، هو سلوك مسلك النصارى فى ترك النكاح والترهب فى الصوامع ، لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن [٩٩] .

بل ، لقد أعطى القرطبى أهمية للعزلة وفصل فيها القول على صورة لا تزيد من الدنيا إلا نفورا وهجرانا ، خوفا من فتنها ، فذكر أن قوله تعالى : ﴿ **إذ أوى الفتية إلى الكهف** ﴾ [١٠٠] صريح فى الفرار بالدين وهجرة الأهل والقربات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة ، وما يلقاه الإنسان من المحنة . ثم ذكر أحوال الناس فى هذا الباب ، وأرفعها سكنى الكهوف الجبال وهى الحالة التى أختارها الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى بداية أمره . ثم قال : رب رجل تكون العزلة له بيته أخفى عليه وأسهل ، وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم ورب رجل متوسط بينهما فيكون له من القوة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم ، فهو معهم - فى الظاهر ومخالف لهم فى الباطن . ثم ذكر خبر عن وهب بن منبه قوله لرجل عزم على عدم مخالطة الناس : لا تفعل ! إنه لا بد لك من الناس ، ولا بد لهم منك ، ولك إليهم حوائج ، ولهم إليك حوائج ، ولكن كن فيهم أصم سميعا ، أعمى بصيرا ، سكوتا نطوقاً [١٠١] .

وروج فى كتاب : التذكرة قضية العزلة وطرقها فى أكثر من موضع [١٠٢] والأخطر من ذلك أنه بعد أن بين اعتزال الصحابة بعد استشهاد عثمان رضى الله عنه ، قال معلقا : هذا ، وكانت الفتنة والقتال بينهم على اجتهاد منهم ، فكان المصيب منهم له أجران ، والمخطىء أجر واحد ، ولم يكن قتال على الدنيا ، فكيف اليوم الذى تسفك فيه الدماء

باتباع الهوى طلبا للملك والاستكثار من الدنيا، فواجب على الإنسان أن يكف اليد واللسان عند ظهور الفتن ونزول البلايا والمحن [١٠٣] .

والمشكل فى تبنى هذا الموقف هذا التفريق غير المنضبط بين الدنيا والآخرة ، وهذا الفهم للواقع الذى يتخذ الموقف على ضوئه ، وعليه فإن عصر القرطبى كانت الفتن فيه على الدنيا فينبغى اعتزالها وتركها لأهلها. وقد ذكر القرطبى كلاما عن الطبرى فى غاية الأهمية، وهو قوله : لو كان الواجب فى كل اختلاف يكون بين الفريقين من المسلمين الهرب منه ولزوم المنازل وكسر السيوف لما أقيم حد ، ولا أبطل باطل ، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين ، وسبى نسائهم ، وسفك دمائهم بأن يتحزبوا عليهم ، ويكف المسلمون أيديهم عنهم ، بأن يقولوا هذه فتنة قد نهينا عن القتال فيها . وأمرنا بكف الأ يدى والهرب منها ، وذلك مخالفة لقوله عليه الصلاة والسلام « خذوا على أيدى سفهائكم » [١٠٤] ولم يتبين القرطبى رحمه الله على الصعيد السياسى هذا الموقف ، فيقوم أو يدعوا إلى إصلاح ما كان يحدث بين زعماء الطوائف، والسبب هو ما تقدم ذكره من اقتتالهم على الدنيا ، أو أن حالهم ميئوس منه .

أقول إن الاعتماد على أحاديث العزلة فى تبنى هذا الموقف مشكل لأمرين ، هما :

١ - إن أحاديث العزلة فهمت بمعزل عن ملابساتها وظروفها، أو بعبارة أخرى بمعزل عن السياق الذى وردت فيه . ثم إن الفتنة الكبرى التى حدثت بين الصحابة ألقت بظلالها على ما يحدث بعد ذلك فى العصور اللاحقة .

٢ - إن هذه الأحاديث لم تفهم على ضوء مقاصد القرآن وغاياته ، فالبرغم من عدم اتفاقها مع مقاصد القرآن وغاياته ، نجد أن النزعة الفردية غالبة على فهمها، أعنى : إن الهم أن ينصرف إلى نجاة الفرد نفسه وترك الأمة تواجه مصيرها بنفسها، وهو أمر يتنافى مع دور المسلم كحامل للرسالة العالمية ، وموجه للحياة البشرية .

والسبب الثانى : ويتصل بالسبب الأول ، وهو تأثر القرطبى -رحمه الله - بأحاديث الفتن وأشراط الساعة ، وقد تجلى هذا فى كتابه التذكرة، فقد كان يبين أن كثيرا من الفتن وأشراط الساعة قد ظهر فى عصره [١٠٥]، من ثم فإن الساعة وشيعة الوقوع، وبيان ذلك :

١ - عند بيانه صفة ولاة آخر الزمان ذكر أن ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب قد وقع أكثره وشاع فى الناس معظمه ، فوسد الأمر إلى غير أهله ، وصار

رؤوس الناس أسافلهم عبيدهم وجهالهم فيملكون البلاد والحكم فى العباد، فيجمعون الأموال ويطيلون البنيان كما هو مشاهد فى هذه الأزمان ، فلا يسمعون موعظة ولا ينزجرون عن معصية فهم صم بكى عمى [١٠٦] فكيف لو رأى التطاول فى البنيان فى زماننا، و كم من عالم ردد هذا القول ، وحذر الناس قرب قيام الساعة ، وأسقط أحاديث الساعة على واقعه .

٢ - ذكر فى معنى قوله عليه السلام : أن تلد الأمة ربتها نقل عن العلماء : وذلك بأن يستولى المسلمون على بلاد الكفر ، فيكثر التسرى فيكون ولد الأمة من سيدها بمنزلة سيدها لشرفه ومنزلته بأبيه ، وعلى هذا فالذى يكون من أشراط الساعة استيلاء المسلمين واتساع خطتهم وكثرة الفتوح ، وهذا قد كان . ثم ذكر أقوالا أخرى فى معنى الحديث كغلبة الجهل بتحريم بيع أمهات الأولاد ، أو يكون المعنى كناية عن كثرة العقوق . ثم قال القرطبى : وهذا ظاهرا فى الوجود من غير نكير ، مستفيضا وشهير . ثم ذكر قولا عن أحد شيوخه أن المعنى هو الإخبار عن استيلاء الكفار على بلاد المسلمين . كما فى هذه الأزمان التى استولى العدو فيها على الأندلس وخراسان وغيرهما من البلدان ، فتسبى المرأة وهى حبلى أو ولدها صغير فيفرق بينهما فيكبر الولد فربما يجتمعان ويتزوجها كما قد وقع من ذلك كثير فإن لله وإنا إليه راجعون [١٠٧] ولا شك أن هذا كلام عجيب ، وبل منهج فى فهم الأحداث خطير ، إذا يغرس فى أذهان العامة أن الأمر أنف ، وأن الاستسلام للأحداث هو أقرب طريق للخلاص ، فالساعة على وشك الوقوع . والقرطبى رحمه الله مخطئ فى هذا الفهم .

٣ - وذكر ما أخبر عنه الرسول عليه الصلاة والسلام علامات الساعة من حدوث خسف فى المشرق وخسف فى المغرب وخسف فى جزيرة العرب ثم ذكر أن أول الآيات الخسوفات الثلاثة ، وذكر عن أبن وهب أن بعضها قد وقع فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن ابن الجوزى أنه وقع بعراق العجم زلازل وخسوفات هائلة هلك بسببها خلق كثير. ثم قال القرطبى : وقد وقع ذلك عندنا بشرق الأندلس فيما سمعنا من بعض مشايخنا بقرية يقال لها « قطر طندة » من قطر دانية ، سقط عليها جبل هناك فأذهبها [١٠٨]. فإذا كان سقوط جبل من علامات الساعة ، فكيف بدمار مدن كبرى ، كما شاهدنا أخيرا فى مدينة كوبية اليابانية .

٤ - ذكر حديثا مرويا عن معاوية : ستفتح بعدى جزيرة تسمى الأندلس ... ثم قال : كل ما وقع فى حديث معاوية هذا فقد شاهدنا بتلك البلاد ، وعاينا معظمه إلا خروج المهدى [١٠٩] .

٥ - وانظر إلى منهج القرطبى فى فهم هذه الأحداث: حيث أشار إلى أن علامات الساعة الكبرى يتقدمها قبض العلم وغلبة الجهل واستيلاء أهله ، وبيع الحكم ، وظهور المعازف ، واستفاضة شرب الخمور، واكتفاء النساء بالنساء ، والرجال بالرجال ، وإطالة البنيان ، وزخرفة المساجد ، وإمارة الصبيان ، ولعن آخر هذه الآمة أولها ، وكثرة الهرج ، وهى أسباب حادثة ، ورواية الأخبار المنذرة بها بعد ما صار الخبر بها عيانا تكلف ، لكن لا بد من ذكرها حتى يوقف عليها، ويتحقق بذلك معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم وصدقه فى كل ما أخبر به [١١٠] وأقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فى كل ما نطق به، ومعجزته قائمة فى كل حين ، لكنه عليه السلام لم يخبر أن وقوع هذه الأحداث سيكون فى عصر القرطبى ، ولم يقل إن هذه العلامات تسوغ للمرء العزلة والاستسلام لها . ومبدأ الأخذ بالأسباب واجب يفرضه القرآن .

٦ - وذكر القرطبى معلقا على ما جاء فى الحديث ويتقارب الزمان ، تقارب الزمان تقارب أحوال أهله فى قلة الدين حتى لا يكون فيهم من يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، كما هو اليوم لغلبة الفسق وظهور أهله [١١١] وهو كلام يدل على حالة اليأس التى وصل إليها القرطبى، وهى حالة مخالفة لطبع العلماء ، بل وعامة الناس .

- ثم ذكر حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول ليتنى مكانه ،.لما يرى فى عظيم البلاء ، وربح الأعداء، وغبن الأولياء ورئاسة وخمول العلماء ... كما فى هذا الزمان [١١٢] وأقول : نحن أولى بهذا الكلام بعد سبعمائة وأربعين سنة تقريبا من وفاة القرطبى، ومع ذلك فمفهوم السببية يحتم مواجهة الأحداث بعقلية ومنهجية فى إطار غايات القران ومقاصده .

٧ - والأخطر من ذلك أيضا تعليقه على ما جاء فى الحديث : ... حتى لخمسين امرأة القيم الواحد ، قال : وقد كان هذا عندنا أو قريبا منه بالأندلس [١١٣] .

أضف إلى هذين السببين طبيعة المنهج التقليدى الذى رسمه القرطبى فى تفسير القرآن ، والذى قصر البحث فيه على قضايا العلم لا قضايا الواقع . فتكاد تلمح من هذا كله نفسية القرطبى وحقيقة موقفه الذى تبناه فى مواجهة الأحداث كمفسر للقرآن الكريم ، وهو الإشكال الحقيقى فى العمل التفسيرى . إن مجموع الصفحات التى دونها القرطبى فى تفسير القران مما له صلة بواقع عصره لم يتجاوز العشرين صفحة ، بينما بلغ مجموع ما دونه القرطبى من صفحات فى تفسيره للقرآن كله - فى الطبعة الحديثة - سبعة آلاف وأربعمائة وأربعا وأربعين صفحة ، وبعبارة أخرى إن الواقع لم يحظ بجهد القرطبى إلا بنسبة مئوية لا تكاد تذكر ، هذا من حيث الكم ، أما من حيث الكيف فلم تتوجه عنايته إلى تحليل قضايا عصره عناية المفسر المصلح المبين لهداية القران، وكيف يكون ملجأ للأمة فى كل حين . إن ما أشار فيه القرطبى إلى بعض أوضاع عصره ليس بشىء فى مقابل الكم التفسيرى الهائل الذى دونه فى تفسير القرآن الكريم كله ، وليس بشىء كذلك فى مقابل الأحداث الجسام والمرض العضال الذى كانت تتجرعه الأمة وتعانى منه فى عصره، ولمزيد من التوضيح أقول :

- إن حديث القرطبى لم يكن متوجها مباشرة إلى هذه الأحداث والوقائع المؤلمة بل جاء تعقيبا أو تعليقا فى ثنايا الآيات فى الأعم الأغلب .

- إن البعد التحليلى لهذه الوقائع والأحداث والأمراض لم يكن متوجها إليه عند القرطبى، فلم يذكر الأسباب التى أوصلت الأمة إلى مثل هذه الحال ، ولم يتوجه باقتراحات أو آراء عملية لإصلاح تلك الأوضاع . وكان الحديث فى الغالب منصبا على الوصف المجرد ، وذكر الأحداث فحسب !

- لم يكن حديث القرطبى فى موضوع الجهاد على وجه الخصوص يناسب طبيعة المرحلة والأحداث التى كانت تمر بها الأمة آنذاك سواء فى بلاد المغرب أو فى بلاد المشرق ، حتى القضايا التى ذكرها فيما يتصل بالجهاد كانت جزئية .

- حديث القرطبى عن علماء عصره كان مجرد وصف للحال الذى كانوا عليه ، وهو حال لم يكن طارئا على بيئة القرطبى ، وليس جديدا بالنسبة له ، لكن معالجته بهذا الوصف أمر قد يقبل من عوام الناس ، لا من مفسر عظيم كالقرطبى. لقد أنتقد الشيخ رشيد

رضا رحمه الله هذا المسلك من المفسرين كالغزالى والرازى والنيسابورى فى حديثهم مثلا عن فساد العلماء ، فقال : ومن العجيب أن هؤلاء العلماء تنبهوا فى القرون الوسطى إلى سوء حال علماء الإسلام الذين يلقبهم الغزالى بـ « علماء السوء » لم يحاولوا معالجة هذا الداء واصطلام أورمته ، وهى تفرق المذاهب والتعصب لها ، بالدواء الذى وصفه الله تعالى فى كتابه ، وهو تأليف أمة تدعو إلى الاعتصام ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، بل اكتفى بعضهم بالشكوى من ذلك وإنكاره فى الكتب التى يؤلفها (١١٤) ، وقد تحدث القرطبى عن حال العلماء ، واكتفى بالتعليق على الوضع المأساوى لهم ببيان أن حالهم فى زمانه أعجب من حال من كان فى زمن الإمام مالك - رحمه الله - .

- الحوقلة والاسترجاع والدعاء عبارات كان يعلق، بها القرطبى على أوضاع العصر الفاسدة ، فهل نكتفى من مفسر عظيم بهذا القدر من التعليق ؟ وإذا كان ذلك كذلك فبماذا يتميز العالم المفسر عن عوام الناس ! ليس مطلوبا من المفسر أن يسير الجيوش ويؤجج الجماهير على الثورة ضد حكام عصره أو أعداء المسلمين ، ولكن المطلوب منه أن يعنى بقضايا الواقع عناية الطبيب بالمريض ، ولماذا يفترض أن لا يكون المفسر مصلحا وهو يتعامل مع نص قرآنى خالد مطلق يتنزل فى كل عصر خاصا لأهل ذلك العصر ؟ ولم يفصل بين الإصلاح والتفسير ولم ينشغل المعنيون بقضايا العلم عن قضايا الواقع ، بل يفصلون بينهما وكأنهما على عداء ، أو أن هذا ليس من شأن المفسر !

لقد عنى القرطبى - رحمه الله - ببيان الأحكام وأسباب النزول والقراءات واللغة ، وهى قضايا قد سبق إليها . وقد أخذت الإسرائيليات منه جهدا أكثر من هذا ، وظهرت على حساب بيان السنن الإلهية فى القصص القرآنى ، واستغرقت منه صفحات كثيرة ، مع أن القرطبى نفسه يقول : « والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات ، فأعرض عن سطورها بصرك ، واصمم عن سماعها أذنيك ، فإنها لا تعطى فكرك إلا خيالا ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا » (١١٥) .

على أن هناك بعض الصفحات المشرقة من تاريخنا الإسلامى الذى عاشه القرطبى رحمه الله حقيقة بأن يسلط الضوء عليها وتدرس دراسة منهجية ، فقد دحر المسلمون

التتار والصليبين فى حروب ومعارك كثيرة فى المشرق والمغرب ، أهمها معركة عين جالوت التى وقعت سنة ٦٥٨ هـ فى المشرق . وجاء الخبر من الأندلس بأن المسلمين انتصروا على الفرنج ، وقتلوا خمسة وأربعين ألفا ، وأسروا عشرة آلاف ، واسترجعوا منهم اثنتين وأربعين بلدة، منها : برنس، وأشبيلية ، وقرطبة ، ومرسية فى رمضان سنة ٦٢٢هـ [١١٦] .

ومنها : أن الملك الأشرف موسى بن العادل لما ولى دمشق سنة ٦٢٦ نادى مناديه أن لا يشتغل أحد من الفقهاء بشيء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه ، ومن اشتغل بالمنطق وعلوم الأوائل نفى من البلد [١١٧] .

هذا إضافة إلى كثير من المواقف الأبية التى اتخذها بعض الحكام ، لكن القرطبى - رحمه الله - لم يركز على هذه الجوانب الإيجابية فى واقع تاريخنا الإسلامى .

هذا حصيلة ما ذكره القرطبى - رحمه الله - وبه يعلم مدى واقعية كلام من يدعى أن القرطبى تحدث عن الواقع واهتم بقضاياه ، وبه أيضا يعلم مدى واقعية كلام د. صلاح عبد الفتاح الخالدى - فى قوله : أن كل جيل من أجيال المسلمين كان يجد فى نصوص القرآن حديثا لواقعة وإصلاحا لحياته ، وكأنها تنزلت اللحظة عليهم ، وكل مفسر من المفسرين كان ينطلق من نصوص القرآن لتربية قومه وإصلاح أمورهم ، وكل تفسير من تفاسير القران يمكن أن تستخرج منه الحالة الثقافية والمستوى الحضارى والوضع الأخلاقى والاجتماعى والإيمانى والسلوكى للعصر الذى عاش فيه المفسر ، وكان هذا التفسير سجلا حضاريا تاريخيا وثائقيا لحالة ذلك العصر، وما هذا إلا لأن نصوص القرآن منطبقة على زمان المفسر ومكانه وموجهه للناس من حوله [١١٨] .

إن العبارات الساخطة اللاذعة التى أطلقها بعض المفسرين والعلماء منتقدين بعض الأوضاع السيئة التى كانت سائدة فى عصرهم ، ليست هى الواقعية التى نعنيها ، وهى مع ذلك لا تشكل منهجا لواحد منهم ، ولا تؤصل طريقة فى معالجة أوضاع الواقع من خلال القرآن الكريم .

أقول : ليس مطلوبا من المفسر أن يفسر القرآن كله ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يفسر من القرآن إلا ما كانت تدعو إليه الحاجة ، فلم لا نتأسى به صلى الله عليه وسلم فى تفسير ما تدعو إليه حاجة وأوضاع عصرنا ، وأمراض وآلام عصرنا . بتدبر

القرآن وربطه بحياة الناس ليشعر الناس أن القرآن قريب منهم وأن صلته وثيقة بحياتهم ، بدل أن يتحول تفسيره إلى تاريخ بعيد الصلة عن حياة الناس !!

إن الذى يقتضيه معنى التفسير وحقيقته أن يكون المفسر ملزما بالإطلاع على بيئة عصره ، ومتمكنا من ثقافة عصره ، وأن يكون حاضرا بفكره وعلمه فى واقع عصره ، مؤثرا فيه ليس هاربا منه ولا غائبا عنه .

إن البعد عن معالجة قضايا الواقع وتحليلها ، وقصر التفسير على طرق قضايا علمية مكررة - هو الإشكال الحقيقى فى العمل التفسيرى ، والذى جاء نتيجة اشتغال المفسر - على وجه الخصوص - بقضايا العلم النظرية وتفاصيلها الجزئية . ودليل آخر على عدم الواقعية فى النهج التفسيرى أن هذه الكتب القيمة فى التفسير كان لها شأن كبير عند علماء المسلمين، ولكنها مع ذلك لم تؤلف للعوام من الناس ، ولم يعن جمهور العوام بالذين يحظون باهتمام المفسرين ، فما هى كتب التفسير التى توجهت إلى خطاب الجمهور!!

وينبغى أن يفهم القارئ أننى لا أقصد إلى التعريض بواحد من المفسرين ، وأرجو أن يتجاوز التقعر فى النقد ، والطعن فى النيات ، ليدرك قضية أخرى أعظم ضررا ، وهى سير العمل التفسيرى الحديث على غرار النهج التفسيرى القديم جمع اختلاف قضايا العلم وجزئياته التى يحشو بها المفسر الحديث تفسيره للقرآن الكريم . وليعلم أن واقع التعليم فى المؤسسات والمعاهد التعليمية المعاصرة هو واقع قد حذا حذو القذة بالقذة النهج التقليدى القديم فى منهج تفسير القرآن الكريم ، فها نحن اليوم - طلبة الدراسات الشرعية وأساتذتها نذهب إلى عمق التراث ندرس قضاياه وهمومه دون التفات إلى هموم واقعنا وقضاياه ، و إبداء الاجتهاد والرأى وإيجاد الحلول التى تواجه هذه التحديات ، بينما يذهب طالب الطب ليدرس مرضا ما انتشر فى بلد معين ، ويذهب طالب الزراعة ليدرس نوعا من الفطريات أو الحشرات فى منطقة ما ، ويذهب طالب الاقتصاد ليدرس خللا ما فى ميزان المدفوعات ، ويذهب طالب الاجتماع ليدرس ظاهره ما ... كل القضايا التى يبحثون فيها قضايا واقعية ، حتى الحشرات تستحق أن يكتب فيها رسائل دكتوراه ، إلا طالب الشريعة فإنه يذهب للبحث فى مسائل أغلبها نظرى ، وتجده يتكلم فى القرآن والسنة والفقه ، فإذا ما جاء إلى قضية واقعية وجم !!

الهوامش

١ - سورة الإسراء آية ٩ .

٢ - إنما اخترت القرطبى موضوعاً للدراسة المفصلة : لأننى كنت قد ألقيت بحثاً فى مؤتمر علوم الشريعة فى الجامعات الذى نظمها المعهد العالى للفكر الإسلامى بالتعاون مع بعض الجامعات الأردنية فى صيف ١٩٩٤ م ، بعنوان : « نحو منهجية منضبطة فى تفسير القرآن » ، وأشرت إلى هذه القضية، وقلت : إن القرطبى لم يتحدث عن واقع عصره حديثاً منهجياً ... وكاد رد أحد الحاضرين بأن هذه فرية ، وأن القرطبى تحدث عن واقع عصره ، فلما ذكر قرطبة قال : أعادها الله ، وأنه لما ذكر وفاة والده ذكر بعض ما حدث فى الأندلس ورد باحث آخر بأنه تتبع الأجزاء الأربعة الأولى من تفسير القرطبى ورأى أنه كات يتحدث عن واقع عصره كالرشوة وفساد الحكام .

٣ - انظر: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمة : مقدمة فى أصول التفسير ، تحقيق د/ عدنان زرزور (بدون تاريخ) دار القرآن ، الكويت ص ٩٣ .

٤ - سورة النساء آية ١٠٥).

٥ - أخرجه الطبرى ، قال الشيخ محمود شاكر : إسناده صحيح متصل. انظر : جامع البيان عن تأويل أى القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، بتحقيق محمود شاكر ، ومراجعة أحمد شاكر (١٣٧٤هـ)، دار المعارف ، مصر ، ج ١، هامش ص ٨٠ ، وأحمد بن شعيب النسائى : فضائل القرآن ، تحقيق فاروق حمادة (١١٩٢) ، دار إحياء العلوم ، الدار البيضاء ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، وأبو بكر جعفر بن محمد الفرياب ، فضائل القرآن تحقيق يوسف عثمان جبريل (١٩٨٩) ، مكتبة الرشد ، الرياض، ص ٢٤١ ، حديث رقم ١٦٩ .

٦ - أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى ، انظر: أبو عبد الله بن البيع النيسابورى الحاكم المستدرك على الصحيحين (بدون تاريخ) ، دار المعرفة ، بيروت ، ج ٤ ، ص ٤٣٢ ، ومحمد ناصر الدين الألبانى ، صحيح سنن أبى داود (١٩٨٩) ، مكتب التربية العربى لدول الخليج ، الرياض ج ٣ ، ص ٧٩٩ حديث رقم ٣٥٧١ .

٧ - أخرجه مالك ، انظر مالك بن أنس الأصبحى ، الموطأ (١٩٩٠) ، دار النفائس ، بيروت ، ص ١٣٧- ١٣٨ حديث رقم ٤٧٩ .

٨ - الطربى جامع البيان (١٩٨٠) ، دار المعرفة ، بيروت ، ج ٣ ، ص ١٠٥.

٩ - سورة الغاشية آية ١٧ .

١٠ - محمد حسين الذهبى : التفسير والمفسرون (١٩٧٦) ، دار الكتب الحد يثة ، القاهرة ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ .

١١ - انظر : أحمد بن محمد المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرضيب ، تحقيق إحسان عباس (١٩٦٨) دار صادر ، بيروت ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ .

١٢ - المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٧٣ - ٤٦٩ ، ٤٧٩ ، وانظر د / عبد الرحمن على الحجى : الأندلسى (١٩٨٣) ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ص ٤٦٤ - ٤٨٢ .

١٣ - الحجى : التاريخ الأندلسى ، مرجع سابق ، ص ٤٨٢ .

١٤ - المقرى : نفح الطيب ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٥٠٧ .

١٥ - انظر عماد الدين اسماعيل بن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية ، تحقيق خمسة من الأساتذة (١٩٨٥) دار الكتب بالعلمية ، بيروت ، ج ١٣، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

١٦ - المصدر السابق نفسه ، ج ١٣، ص ٩٤ .

١٧ - المصدر نفسه ، ج ١٣، ص ٢١٥ ولمعرفة الأحداث ما بين سنتى ٦٦٠ : ٦٧١هـ ، انظر : ج ١٣، ص٤٠ - ٢٧١ .

١٨ - سورة البقرة آية ٢١٦ .

١٩ - أبو عبد الله محمد بن أحمر الانصارى القرطبى ، الجامع لاحكام القرآن (١٩٦٧) ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ج ٣ ، ص ٣٩ .

٢٠ - سورة البقرة الآية ٢٢٢ .

٢١ - سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

٢٢ - المصدر السابق نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ .

٢٣ - سورة البقرة آية : ٢٤٥ .

٢٤ - المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٢٣٧ .

٢٥ - سورة آل عمران آية : ١٦٩ .

٢٦ - المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ .

٢٧ - سورة الأنفال آية ٧٢ .

٢٨ - المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٥٧ .

٢٩ - انظر أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى ، أحكام القرآن ، تحقيق على محمد البيجاوى (بدون تاريخ) ، دار المعرفة ، بيروت ، ج ٢، ص ٨٨٨ .

٣٠ - سورة التوبة آية ٤١ .

٣١ - المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٥٥ ، انظر الجامع لأحكام القرآن ، ج ٨ ، ص ١٥٢- ١٥٣ .

٣٢ - نفح الطيب ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ٤٧٧ .

٣٣ - سورة يوسف آية ١٧.

٣٤ - الجامع لأحكام القرآن ، ج ٩ ، ص ١٤٦ .

٣٥ - سورة النساء آية ١٤١ .

٣٦ - سورة الشورى الآية ٣٠ .

٣٧ - المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ .

٣٨ - سورة النحل الآية ٥ .

٣٩ - المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٧٠ ، وانظر أحكام القرآن لابن العربى ، ج ٣ ، ص ١١٤ .

٤٠ - انظر القاضى أبو اليمين مجير الدين الحنجلى ، الإنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (١٩٧٣) مكتبة المحتسب ، عمان ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٤٠٦ ، ج ٢ ، ص ٥ - ٨ .

٤١ - سورة الإسراء الآية ٤٥ .

٤٢ - المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص ٢٧ .

٤٣ - سورة البقرة الآية ٣٤ .

٤٤ - المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .

٤٥ - سورة يوسف الآية ١٠٠ .

٤٦ - المصدرة نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٩ .

٤٧ - سورة البقرة الآية ٤٥ .

٤٨ - المصدر نفسه ، ج ١، ص ٣٧٥ .

٤٩ - سورة الكهف الآية ١٤ .

٥٠ - المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص٣٦٦ ، وانظر ص ٣٦٦ ، وانظر ص ٢٦٣ - ٣٦٥ من الجزء نفسه .

٥١ - المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٨٠ .

٥٢ - المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٥٤ .

٥٣ - المصدر نفسه ، ج ١١، انظر الصفحات ١٣ ، ٢٤ ، ٩٥ ، ٢٣٨ .

٥٤ - انظر على سبيل المثال ، ج ١٨، ص ٢٨ - ١٤٣ .

٥٥ - سورة آل عمران آية ١١٨ .

٥٦ - المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .

٥٧ - سورة الجمعة آية ٩ .

٥٨ - المصدر نفسه ، ج ١٨، ص ١٠٧ .

٥٩ - المصدر نفسه ، ج٥ ، ٢٥٩ .

٦٠ - المصدر نفسه ، ج٥ ، ٢٥٩ .

٦١ - سورة البقرة آية ١٨٨ .

٦٢ - المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٤٠ ، وقد لمح إلى شئ من هذا فى ج ١ ، ص ٣٣٤ .

٦٣ - سورة الرعد آية ٤١ .

٦٤ - المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٣٣٤ .

٦٥ - المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٤ .

٦٦ - سورة الشعراء آية ١٣٠ .

٦٧ - المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص١٢٤ -١٢٥ .

٦٨ - سورة البقرة آية : ٣٢ .

٦٩ - المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

٧٠ - سورة البقرة آية : ٦٨ .

٧١ - المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٩ .

٧٢ - المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

٧٣ - المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

٧٤ - سورة آل عمران آية ١٨٥ .

٧٥ - المصدر نفسه ، ج ٤ ص ، ٤٠٠ .

٧٦ - المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٣ .

٧٧ - المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩ .

٧٨ - انظر : عدنان زرزور ، منهجية التعامل مع علوم الشريعة فى ضوء التحديات المعاصرة « بحث مخطوط ألقى فى مؤتمر علوم الشريعة فى الجامعات ، فى صيف ١٩٩٤ ، فى عمان والذى نظمه المعهد العالمى للفكر الإسلامى بالتعاون مع بعض الجامعات الأردنية » ، ص١٣ .

٧٩ - سورة النور آية : ٣٠ .

٨٠ - الجامع لأحكام القرآن ، ١٢ ، ص ٢٢٤ .

٨١ - سورة النور آية : ٦٠ .

٨٢ - المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٣١١ .

٨٣ - المصدر نفسه ج ١٣ ، ص ١٧ .

٨٤ - سورة التكاثر آية : ٢ .

٨٥ - المصدر نفسه ، ج ٢٠ . ص ١٧٠ - ١٧١ . ٢)

٨٦ - سورة الزخرف آية : ١٣ . ٣)

٨٧ - المصدر نفسه ، ج ١٦، ص ٦٨ . ٤)

٨٨ - سورة البقرة آية : ٢٤٩ . ٥)

٨٩ - المصدر نفسه ج٣ ، ص ٢٥٤ . ٦)

٩٠ - سورة النور آية : ٨٥ ١ .

٩١ - المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٣٠٣ ٢ .

٩٢ - المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ١٤ .

٩٣ - المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ١ .

٩٤ - سورة فاطر آية : ٣٢ .

٩٥ - المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٣٥١ .

٩٦ - المقرى ، نفح الطيب ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص٢١٠ .

٩٧ - الجامع لأحكام القرآن ، ١٧ ، ص ٢٦٤ .

٩٨ - سورة الحديد آية : ٢٧ .

٩٩ - المصدر نفسه ، ج ١٩ ، ص ٤٥ ، انظر أحكام القرآن لابن العربى ، ج ٤ ، ص ١٨٨٠ .

١٠٠ - سورة الكهف آية : ١٠ .

١٠١ - أنظر المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٣٦٠ - ٣٦٢ .

١٠٢ - انظر أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبى ، التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة (١٩٨٥) ، دار الكتب العلمية ، بيروت . ص ٦١٣، ٦٢٩ ، ٦٥٤ - ٦٥٧ .

١٠٣ - المصدر السابق نفسه ، ص ٦٣٠ .

١٠٤ - المصدر نفسه ، ص ٦٣٦ .

١٠٥ - المصدر نفسه ، ٦٧٨- ٦٧٩ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ .

١٠٦ - المصدر نفسه ، ص ٧٢٨ .

١٠٧ - المصدر نفسه ، ص ٧٢٩ .

١٠٨ - المصدر نفسه ، ص ٧٣٩ - ٧٤٠ .

١٠٩ - المصدر نفسه ، ص ٧٠٣ .

١١٠ - المصدر نفسه ، ص ٧١٠ .

١١١ - المصدر نفسه ، ص ٧١٦ .

١١٢ - المصدر نفسه ، ص ٧١٦ .

١١٣ - المصدر نفسه ، ص ٧٢٤ .

١١٤ - محمد رشيد رضا ، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار (١٣٧٣) ، دار المنار ، مصر ، ج ٤ ص ٥٠ .

١١٥ - الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٥ ، ص ٢١٠ .

١١٦ - ابن كثير ، البداية والنهاية ، مرجع سابق ، ج ١٣ ، ص ٢٣٣ ، ٢٥٨ .

١١٧ - المصدر السابق نفسه ، ج١٣ ، ص ١٥٨ .

١١٨ - صلاح عبد الفتاح الخالدى ، مفاتيح التعامل مع القرآن (١٩٨٥) ، مكتبة المنار ، الأردن ص ١٠٦ .

مصادر البحث ومراجعة

١ - الأصبحى ، مالك بن أنس ، الموطأ ،(١٩٩٠) ، دار النقاش ، بيروت .

٢ - الألبانى ، محمد نصر الدين ، صحيح سنن أبى داود (١٩٨٩) مكتبة التربية العربى لدول الخليج ، الرياض .

٣ - ابن تيمية ، أحمد بن عبد السلام ، مقدمة فى أصول التفسير ، تحقيق عدنان زرزور بدون تاريخ ، دار القرآن الكريم ، الكويت .

٤ - الحاكم أبو عبد الله بن البيع النيسابورى ، المستدرك على الصحيحين ، (بدون تاريخ) ، دار المعرفة ، بيروت .

٥ - الحجى عبد الرحمن على ، التاريخ الأندلسى (١٩٨٣) دار الاعتصام ، القاهرة .

٦ - الخالدى ، صلاح عبد الفتاح ، مفاتيح للتعامل مع القرآن (١٩٨٥) مكتبة المنار الأردن .

٧ - الذهبى ، محمد حسين ، التفسير والمفسرون (١٩٧٦) ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .

٨ - رضا ، محمد رشيد ، تفسير القران الحكيم الشهير بتفسير المنار (١٣٧٣ هـ) ، دار المنار، مصر .

٩ - زرزور ، عدنان ، منهجية التعامل جمع كتب التراث فى ضوء التحديات المعاصرة (بحث مخطوط ألقى فى مؤتمر علوم الشريعة فى الجامعات ، الذى نظمه المعهد العالمى للفكر الإسلامى بالتعاون مع بعض الجامعات الأردنية فى صيف ١٩٩٤ فى عمان) .

١٠ - الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، تحقيق وتعليق محمود شاكر ، مراجعة أحمد شاكر ١٣٧٤هـ) ، دار المعارف ، مصر ، ونسخة أخر (١٩٨٠) دار المعرفة ، بيروت .

١١ - ابن العربى ، أبو بكر محمد بن عبد الله ،أحكام القران ، تحقيق على محمد البجاوى (بدون تاريخ) ، دار المعرفة ،بيروت .

١٢ - الفريابى ، أبو بكر جعفر بن محمد، فضائل القرآن تحقيق يوسف عثمان جبريل (١٩٨٩) ، مكتبة الرشد ، الرياض .

١٣ - القرطبى أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى ، التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة (١٩٨٠) ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٤ - القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى ، الجامع لأحكام القرآن (١٩٦٧)، دار الكتاب العربى ، القاهرة .

١٥ - ابن كثير أبو الفداء ، إسماعيل بن كثير ، البداية والنهاية ، تحقيق خمسة من الأساتذة (١٩٨٥) دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٦ - الحنبلى القاضى أبو اليمين ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (١٩٧٣) مكتبة المحتسب ، عمان .

١٧ - المقرى ، أحمد بن محمد ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس (١٩٦٨) ، دار صادر ، بيروت .

١٨ - النسائى أحمد بن شعيب ، فضائل القرآن ، تحقيق فاروق حمادة (١٩٩٢) دار إحياء العلوم ، الدار البيضاء .